فنّ الملاحة في الشرق

للاب فكتور دي كريبه اليسوعي

انّ للملاحة بين جميع الاكتشافات التي وقف عليها البشر مقاماً رفيعاً. فهي تنطق بلسان حالها عن جُرأة المرء وحزمه اذ ركب لجج البحور وذلّل تيّار المياه وجعل غمرها طريقة يسير فيها فينتهي الى اقاصي البلاد بوقت قريب وينال من خيراتها ويتعاطى مع شعوبها

وتاريخ الملاحة واخبار ابطالها تقتضي صفحات مطوّلة بل مجلّدات ضخمة الّا اننا سنكتفي في هذه النبذة الوجيزة بذكر مبادئ هذا الفنّ الجليل في الاعصار الاولى وترقّيه في مدارج التقدم فانّ شرح ما استهلّ به لمن شأنه ان يبيّن لنا ما فازهُ في عصرنا من التحسين والكمال

لا ريبَ ان الملاحة كبقيّة الصنائع والحرف انّما اصلها من الشرق. ولكن لا يتيسّر لنا ان نعيّن الزمن الذي به وُجد هذا الفنّ وانتشر بين الشعوب كما اننا لا نعلم اسم البلد الذي فيه ظهر اوّلاً والملّاحين ذوي الباس والمروءة الذين خاطروا بحياتهم في بادئ الامر فركبوا الاخشاب الاولى الطافئة فوق المياه ولحقوا ببلادٍ كانوا يجهلون امرها واحوالها

وقد ذهب القدماء في اصل الملاحة مذاهب شتّى. ورد في الفقرات الباقية من تاريخ سَنْكُنْيَتُون الفينيقي الذي عاش قبل المسيح بزمن طويل انّ اكتشاف فنّ الملاحة كان على سبيل الاتفاق والصدفة وذلك انّ قوماً من الفينيقيين كانوا يقطنون في سواحل سوريّة في غابات واسعة الارجاء. فضربت صاعقة رؤوس اشجارها فاتّقدت وامتدّ لسان اللهيب الى ان التهم كل اشجار الغابة. فلمّا لم يرَ اهل تلك النواحي نجاةً من النار قطعوا من اخشاب الغابة المحرقة ما امكنهم فالقوها في البحر واعتلوا متنها فساروا في مجاهل اليمّ وكان قائدهم أُوزُورُس (Osoüs)

قال سَنْكُنْيتون ثم سعى الملّاحون بعد ذلك بتحسين هذا القارب الاوّل وكان القائم بهذا العمل كريزور (Chrysor) الذي اشتهر بعدئذٍ باسم الاله فُلكان (Vulcain)

وقيل ان اوّل مكتشف لفنّ الملاحة المصريّون اتخذوا لهم زوارق من نبات البَرْديّ لينجوا من النيل في ابّان فيَضانهِ السنويّ. وهذه صورة قارب من قصب البرديّ رُسمت رسماً ناتئاً على بعض آثار قدماء المصريين المحفوظة في متحف اللوفر في باريس

سفينة مصرية قديمة من نبات البُرْدي

هذا الى مزاعم اخرى ليس في تعدادها كبير امر. وعلى رأينا انّ هذا الفنّ سبق عهد الطوفان المرميّ اكتشفهُ سكّان السواحل رضفّات الانهار. وذلك انهم يكونون شاهدوا بعض الاجسام تطفو على وجه المياه وتتلاعب بها الامواج او يدفعها سير الانهار فنبّه ذلك افكارهم فاتّخذوا الخشب او ما قام مقامهُ كالظروف المنفوخة وضمّوها الى بعضها. ثمّ جعلوا ينتقلون شيئاً فشيئاً من بلادهم الى بلاد اخرى قريبة الى ان احكموا هذا الفنّ وحسّنوا مراكبهم بالاختبار اليوميّ. وقد جاء في رسوم خُرْساباذ السابقة لعهد المسيح بنحو خمسة عشر قرناً شكل الأطواف (الكلكات) التي كانت تسير على نهري الفرات ودجلة فهي لا تكاد تختلف عن الاطواف التي لا يزال يستعملها عَرَب الجزيرة والعراق الى يومنا هذا

وعلى كل حال ما من أحد ينكر انّ سفينة نوح كانت من احكم واتقن ما جاء من هذا القبيل وانّها سبقت كل ما ذكرهُ القدماء عن اكتشاف فنّ الملاحة. ولعلّ نوحاً نفسهُ انتفع ممّا شاهدهُ قبلهُ من المراكب البحريّة في عمل تابوتهِ لينجو من غمر مياه الطوفان وان كان في صنعهِ قد امتثل تماماً لاحكام الربّ فنظّم كلّ اقسامهِ على مقتضى اوامرهِ تعالى

ولمّا خرج نوح واولادهُ من التابوت لم يكونوا لينسوا هذه السفينة فاتّخذوها مثالاً لسفن اخرى ركبوها لقضاء اوطارهم كالصيد والاسفار

ولا غرو انّ الفينيقيين انكبّوا على فنّ الملاحة وسَعَوْا في تحسين ادواتهِ. وجهّزوا قواريهم بالسكّان (الدفّة) والمقاذيف والقلوع. وفي نبوّة يعقوب قبل وفاتهِ ما يصرّح عن ذكر سفن الفينيقيين ومرافئها (تكوين ٤٩: ١٣). وجاء في الرسائل المكتشفة في تلّ

ارتة ذكر السفن التي غمرها اهل جبيل والبترون وبيروت وصور وصيدا لخدمة فراعنة مصر وذلك قبل المسيح بخمسة عشر قرنًا

اما العبرانيُّون فما كادوا يدخلون ارض الميعاد حتى اتَّخذوا لهم سفنًا على مثال الكنعانيين. وقد ورد في سفر القضاة (٥ : ١٧) ذكر سفن قبيلة دان

ولا مراء انَّهُ بتقدُّم الاعصار اصاب ايضًا فنَّ الملاحة نصيبهُ من التحسُّن والنجاح. وهاك ما رواهُ هوميروس الشاعر في وصف السفينة التي اتَّخذها اوليس رغبةً في النجاة من مكايد كالبسو قال: «ان اوليس شرع بقطع عشرين من عظام الشجر ثمَّ نشرها بتربيع اطرافها ثمَّ سوَّى سطحها وثقبها بمخرز وضمَّ الالواح الى بعضها بروزب وونائات. ثمَّ جعل في عرضها اخشابًا وسطحها بالالواح ووضع في اطرافها قوائم مرتفعة تحدق بها وتصون وسطها من الماء.»

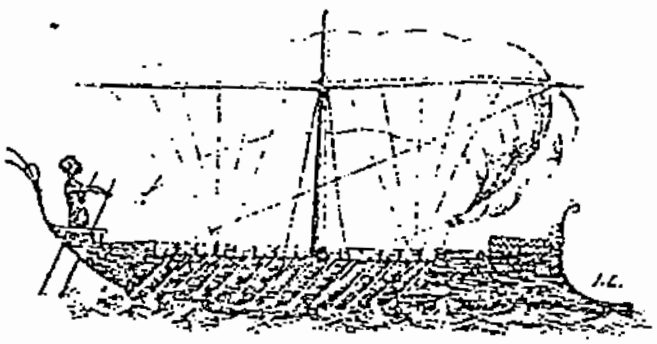

مركب يوناني قديم

ولا يوم انَّ الفينيقيّين افرغوا الوسع في احكام عمارة السفن وقد نرى مراكبهم قبل عصرنا بثلاثة آلاف سنة تتجوَّل في البحر المتوسط وتسير الى البحر الاسود وتنتهي الى بحر القلزم وبحر الهند وبحر فارس لتستجلب منها العقاقير وتشحن المعادن وكلّ محصولات تلك البلاد السحيقة. وكانوا جعلوا لهم مستعمرات في اقطار شتَّى او على الاقلّ اتَّخذوا لهم فيها محطَّات يقدمون عليها سنويًّا لتجارتهم

وكانت الدول الكبيرة كالاشوريين والمصريين يستعملون الفينيقيين في سيبل صوالحهم ليخوضوا البحار ويحاربوا من عاداهم من الشعوب الساحلية. فنرى مثلًا فراعنة

الدولة الثامنة عشرة كتوتمس الثالث ورَعمسيس الثاني (سيسوستريس) يملكون عمارةً كبيرة يركبها لشؤونهم ملّاحون فينيقيُّون. وكان في ذلك العصر وصيدا القَدَم الاعلى. وكانت سفن سليمان تسير مع سفنهم تجلب لهُ من ترشيش وغيرها من جزائر البحر اصناف المعادن وغرائب المخلوقات كالطواويس والقِرَدة (سفر الملوك الثالث ١٠: ٢٢)

فاتّساع تجارة الفينيقيين واسفارهم البعيدة الى اقاصي المعمور كانت تستلزم سفنًا تجمع بين المتانة والاتقان. وكانوا في اوّل امرهم لا يسيرون الّا نهارًا قرب السواحل لانهم لم يعرفوا البلاد ولم يدركوا في الليل نواميس الكواكب. وكانوا يجعلون قمر السفينة مسطحًا ليتمكنوا بذلك ان يسحبوها في كلّ مساء الى شاطئ البحر اذا ما خافوا القرصان او ارادوا اصلاحها. فلمّا ألِفوا البحار شرعوا يخوضون في معامعها وفي الليل يرتبون النجوم لسيرهم

ثمّ بعد ذلك بمدّة جعلوا سفن التجارة حربيّة بالحرب بان زادوا في مقدّمها كُلّابة او شوكة من حديد لثقب مراكب العدوّ وبنوا مقامًا للجنود فوق سطح السفينة. ولم يزالوا بعدئذٍ في تحسين هذه السفن ونقشها حتى صارت من البدائع. واخبر هيرودوت انّ السفينة التي كان يركبها رعمسيس السابق ذكرهُ كانت مطليّة في خارجها بالذهب وفي داخلها بالفضّة

ويشهد حزقيال النبي على ما اتّصل اليه الفينيقيون لاسيما مدينتي صور وصيداء من البراعة في فنّ التجارة فانّهُ يصف تجارتهم مع كلّ ممالك الارض بكلام بارع يُعدّ من اعلى طبقة الشعر (راجع الفصول ٢٦ و٢٧ و٢٨)

ومن شهادات التاريخ للّاحي فينيقية ما رواهُ هيرودوت المؤرّخ (ك ٧ عدد ٤٤) عن الملك ارتحششتا (كِسركسيس) انّهُ جمع لمحاربة اليونان نيّف و ١٢٠٠ سفينةٍ من كل سواحل البحر المتوسط واراد اختبار حذاقة بحّاريها فكانت الغلبة في سباقٍ جرى امامهُ لفينيقيي صيداء فلم يركب بعدئذٍ الّا سفنهم

وينسب لليونان اختراع السُّفن ذات الصفّين وذات الصفوف الثلاثة من الجذّافين (birème, trirème) وزيدَ في عدد هذه الصفوف الى العشرة والعشرين صفًّا الى الاربعين

وذكر المؤرخ أُبريلي انّ ملك صقلية هيرون تقدّم الى ارشيد المهندس الشهير بان

يصنع له سفينة لا مثيل لها في الكبر والإتقان فقام ارشميد بامر الملك واستخدم لانجاز العمل مئات من النجّارين مع عمّالهم فتمّم هذا المشروع بعد سنة وتأنّق فيه الى الغاية. قيل أنهُ دخل في بناء هذا المركب من الخشب ما كان كافيًا لستين سفينة. وكان منقسمًا الى ثلاثة اقسام: فكان القسم الاسفل لشحن البضائع وبنى في القسم الاوسط ثلاثين حجرة في كلّ منها اربعة فُرُش. واما القسم الاعلى فكان مفروشًا بالفسيفساء يعلوهُ مرقبٌ يحفّ به شجيرات متنوّعة وزهور بديعة وفي صدره قاعةٌ للسيدات مفروشة بالحجارة الكريمة. وكانت الجدران مرصعة بنقوش من العاج والفضّة والاصداف. وكان فيه مقام لفرَقٍ من الجند تحميهم الأدوات الحربيّة كالدبّابات والمنجنيقات. ولكبر مساحته عجزت مرافئ صقلية مع سعتها عن احتوائه. فاهداهُ ملك صقلية الى فرعون مصر

وكان لبطليموس المحبّ ابيه سفينةٌ تباري مركب هيرون عظمًا وجمالًا. اخبر أُبيلي وبلوترخُس انّ طولها كان يبلغ ٤٢٠ قدمًا وعرضها ستين. وكان لها اربعون صفًّا من المجاذيف تدفعها في البحر. وكانت المجاذيف مذهّبة طولها ٧٢ قدمًا رُكِّب الرصاص في قبضتها تيسيرًا لحركة. وكان في مقدّم السفينة ثلاث حراب لثقب سفن العدوّ. وفي سطح البروج المشيّدة فيها كان يسكن الفان من الجنود. وجعل الملك لنفسه في صدر السفينة عرشًا بهيًا تحدق به روضة تصدح فيها غرائب الطيور. اما الشروع فكانت من الارجوان.

هذا وانّ البواخر الحربية في ايّامنا مع رحبها وسعتها لم تكن لتبلغ الّا نادرًا هذه القياسات

وقد فاقت السفينتين السابق ذكرهما باربعةُ الملكة كلاوبترة في مُعترَك أكتيوم لمّا حاربها اوكتاف (اوغسطوس الملك). قيل انّ مقاذيفها كانت من خشب الارز المقوّش مثبتةً في محامل من الفضّة المصمتة. لكنّ هذه السفينة مع حسنها تشوّهت بانهزام كلاوبترة وكسرة جنودها فصدق فيها قول سينيكا الفيلسوف: «ليست قوّة السفن بالمقاذيف المذهّبة وحراب من الابريز وانّما النحاس افضل لوقائع الحرب»

وكان النحاس يدخل في كثير من ادوات السفن يجلبهُ الفينيقيون بحرًا من ضواحي اسبانية وسواحل بريطانية. ولو كانوا اتخذوا الفولاذ لكان خيرًا لهم الّا انّهم لم يحسنوا وقتئذٍ صُنعهُ. وكان النحاس في اغلب المواقع يفي بحاجتهم وتشقّ صدماتهُ سُفن

العدوّ فتغرقها اللهمَّ الّا اذا كانت ضخمة الاخشاب مصفحة بصفائح الحديد فكانت لا تعمل فيها حراب النحاس وربَّما التوت هذه دون جدوى

والمعتركات البحريَّة القديمة لم تشبه المعارك التي جرت عادتها بعدئذٍ فلم يحاولوا الحملة على سفن العدوّ بهجوم الجنـد عليها بل كانت غايتهم ان يشقُّوا جوانبها فتدخلها المياهُ وتغمرها. ولم يكن في هذه الوقائع محلٌّ للأشرعة لقلّة منافعها ولمَّا رأى اوغسطوس قيصر خصمهُ انطوان في واقعة أكسيوم ناشرًا قلوعهُ فهم انَّهُ يُعدُّ نفسهُ للفرار كما اجرى ذلك فعلًا

الّا ان مشاهير امراء البحر كانوا في بعض الاحوال يستخدمون الشُّرع بصاحبة القاذيف تخفيفًا لحركات البوارج كما فعل تيمستوكل الشهير في موقعة سلاميس فبدَّد شمل سفن الفرس وفاز عليهم بانتصار جليل

وافضل السُّفن الحربيَّة كانت مستطيلة الشكل خفيفة الادوات يعلوها بروجٌ مشحونة بالجند والرُّماة . وربَّما كانوا يجعلون فيها الأكباش والعرَّادات لقذف العدوّ بالحجارة

ومن المراكب القديمة ما كانوا يتَّخذونها للدين واكرام الهتهم او سفر كهنتهم. وقد اشتهر في الشرق من هذه السفن المقدَّسة سفينة للمصريين تُدعى سفينة بَادِي. وكان اكرامهم لها عظيمًا جدًّا حتَّى انَّهم كانوا يعدُّون كاكبر اهانة لهم الدُّعاء عليها بالغَرَق

امَّا اليونان فكانوا اتَّخذوا لدينهم سفينةً عجيبة الصُّنع غريبة الإحكام يدعونها ديلي لأنَّهم كانوا كلَّ سنة يرسلون عليها التقادم والهدايا النفيسة الى هيكل ابولُّون في جزيرة ديلوس. ولم يحلّ لهم في مدَّة سفرها ان يعدموا المجرمين. ومن جرَّاء ذلك لم ينفذوا الحكم في سقراط الفيلسوف بعد ان حُكم عليه بشرب السمّ الى ان عادت السفينة المقدَّسة الى اثينة

هذه نبذةٌ وجيزة في فنّ الملاحة القديمة. وهي كافية ليرى قرَّاؤنا الكرام انَّ للشَّرق ولاسيَّما لبلاد فينيقية فضلًا ساميًا في هذه الصناعة الخطيرة. فعسى ان ينبِّه ذلك افكار الشرقيين ويحملهم على مجاراة الاجانب في عصرنا فينالوا من الفخر فيها ما احرزهُ آباؤنا الاماجد